على طريق تأصيل الشعر الجاهلى من خلال الصورة

د . ابراهيم عبد الله الضحيان

• النبات اولا •

لقد تعددت الدراسات ، وتوالت البحوث ، وكثرت الاجتهادات فى العصر الحديث حول الشعر الجاهلى ـ ماهو صحيح منه وماهو منحول ـ واختفلت نظرياتهم وآراؤهم ، وتباينت جهات نظرهم حول تحقيق هذا الشعر بين الشك واليقين .

وقد اتخذت فى هذا البحث المتواضع طريقاً وسطاً ، فلم أسلِّم بصحة الشعر الجاهلى وقبوله على إطلاقه ، ولم آخذ بمبدأ الشك طريقاً إلى اليقين . ولكننى ركنت إلى الواقع ، فى محاولة لاستقراء الشعر الجاهلى ، بمساعدة الجزئيات المتاحة من خلال البيئة .

ثم وقع نظرى على كتاب « النبات » للأصمعى . أجمل ذكرها إجمالاً ، وحصرها فى واحد وثلاثمائة نوع . وكذلك كتاب أبى حنيفة الدينورى فى النبات أيضاً ، لكن مسمياتها لا تختلف كثيراً عما أورده الأصمعى .

وقد ذكرتُ بعضَ النباتات المعروفة فى نجد اليوم ـ عند بعض أهل الخبرة والتجربة من كبار السن ـ وفى حدود معرفتى ـ وقارنتها بما ذكره الأصمعى ، وبما أورده أبو حنيفة الدنيورى مما لم يذكره الأصمعى ، وأتبعت ذلك بذكر نماذج من هذه النباتات ، من واقع بعض دواوين الشعر الجاهلى ، كدليل على عراقة التسمية وأصالتها . فجاء البحث على النحو التالى :

١ ـ مقارنة النباتات فى نجد بكتاب الأصمعى .

٢ ـ مقارنتها بكتاب أبى حنيفة الدينورى .

٣ ـ مقارنتها بأصولها القديمة من واقع بعض أشعار الجاهليين أو المخضرمين .

٤ ـ عرض وجهة النظر المطروحة .

وسأرحب بأية ملاحظة أو إضافة ـ من القارئ العزيز ـ حول أسماء النباتات وأوصافها ، وكذلك حول وجهة النظر نفسها .

١ ـ كتاب « النبات » للأصمعى :

أسماء النباتات فى كتاب الأصمعى	أسماء النباتات عنـــد أهل نجـد	بعض خصائصها وأوصافها عند أهل نجد
الآء		
الأبأ		
الأثل	الأثل	
الأجرد		
الأخريط .	الخَزِيط	له طعم كطعم شجر الرمث جذعه أسود ترعاه الغنم والإبل ويسمى « الضمْران »

الإذخر		
الأراك		
الأرطى		وبعضهم يسميه « العبل »
الأرنبه	الإرْطى	
الآس		
الإسبست		
الإسحارُ		شجرة شهباء تميل إلى البياض ترعاها الماشية
الإسحل	لعله « السُّحَرْ »	
الأسل		
ابليبح	الإسَل	نبات له زهرة بنفسجية وشجرته تشبه « الشقُارى »
الألاء	السُّليح	لعله « ذعلوق الجمل » يؤخذ من جذعه علك
الأمطيُّ		فيسمى « علك المطى »
الإسنامه		يستعمل فى تنظيف الملابس
الإشنان	الشنان	
الأقانى		معروف ومشهور بزهره الأبيض الناصع البياض
الأُقْحوان	القَحْوِيان	نبتة غضة زهرتها بيضاء صغيرة
الأيهقان	البهق	
اللبّان		
البردى	البردى	نبات لا ترعاه الماشية ويضعه البدْو مع الأقط
البَرْوَق	البَرْوَق	ويسميه الأصمعى « فلفل البر »
البرير		نبات معروف يؤكل
البسباس	البسباس	
البشام		
البطم		
البغوه		لعلها « الأيبد » نبات مجتمع عليه مثل
بقلة الضب		الزرع يأكله الضب
		شوك « شجرة الكرش » يخرج فى الثمرة
البُهْمى	البهمى	يشبه شوك الصمعاء

التألب		
التَّرِبه	التَّرْبه	نبتة بحجم اليد يعلق التراب أوراقها دائما
التَّرعه		
التَّغارير		ويسمى العشب إذا كان غضاً « غرغير »
التَّنضب		
التَّنُّوم	التَّنُّوم	وهو من نبات الصيف وفى ثمرته مادة صبغ زرقاء ترعاه الظباء
التِّين	التين	معروف
التآليل		
الثُّدّاء		لعلها « التنداء » تشبه « الثمام » ينبت الفقع دائما فى وسطها .
الثرمان		
الثعارير		
الثغارير		
الثَّغام	الثغام	يكثر فى الجبال مجتمعة شجرته رءوس عيدانها كشعاع السنبلة
الثغر		
الثمام	الثمام	شجرة خضراء ترتفع بطول متر أو مترين . ترعاها الماشية وبخاصة البقر .
الثيل	الثيل	معروف
الجنجات	الجثجات	شجر . ويجعلونه على قنو النخلة فيحفظها من الجراد لأنه مُرّ وراحته كريهة
الجذْر		
الجرجير	الجرجير	معروف
جزر البر		لعله « الحنباز » وكان الناس زمن الجوع يطبخونه مع الطعام ويأكلونه
الجَعْدَةُ	« الجَعْدَ »	ورقه أبيض وناعم وأعواده دقيقةلثمرته رائحة طيبة . يستخدم فى حشو الوسائد
الجليل		

جوز الجبل		
الحاجّ		
الحاذ	الحاذ	شجر له شوك . وتأكله ابل تجتمع أغصانه ولا ترتفع .
الحبق	الحبق	نوع من « النعناع »
حبة الخضراء		لعلها « السّميرا » عند أهل القصيم و « الخضيرا » عند أهل الفارض والحبة السوداء عند أهل الحجاز وقد تكون « الكسمر » أو « الكمون » أو « الحلوة » .
الجِنْبَلْ		
الحدَجْ		لعله « الشرّى » حيث يسمى ثمر الشرى « حدجا »
الحُرُبُث		
الحرشاء	الحرشاء	نبتة . وتزرع مع القت كأعلاف . كما أنها نبتة برية وأوراقها خشنة .
الحَرْشَفْ		
الحُرْض		
الحُرْف	الحرف	نبات برى له رائحة كالرشاد
الحزّاء	الحزا	شجر برى
الحسار	الحسار	يكون فى أطراف الرياض لا تكبر شجرته ولا تتمدد
الحسَك	الحسَك	مثل « النفل » وفيها شوك يحمل حبًا .
الحصاد		
الحفأ		
الحِفْرا		
الحُلَّبْ	الحِلَّبْ	نبات يتمدد إذا كسر عوده خرج منه سائل أبيض يستخدمه البعض منهم دواء « للحزا »
الحلبلاب		
الحَلْفا	الحلفا	يكثر نباته حول المياه الراكدة
الحَلَمَةْ	الحلمَةْ	نبات برى تأكله الإبل وهو شائك زهرته بنفسجية ينبت فى الصيف .

الحَلى		
الحَمَاط	الحَمَاطْ	ينبت فى المياه الراكدة « الغبول » هو « الحُمَيْض »
الحُمَاط		يكثر فى الجبال ويؤكل وهو حامض جداً .
الجِمْجِمْ		
الحَمَصِيْص	« الحَمَبْصِيْص »	من نبات الرياض ويأكله الغنم وهو حامض
الحمضْ	الحمْضْ	وهو ربيع الإبل حيث تفضله على غيره
الحِنّأ		
الحنْدقوق	الحنْدقوق	نبات برى له مثل حب الرشاد يستخدمه بعضهم مع الشاى كعلاج للكبد
الجِنزابْ		لعله « الحمباز »
الحنظل		اسم من أسماء الشَّرْيْ
الحنْوَه	الحنْوَه	من نباتات الربيع المزهرة وترعاها الماشية ورائحته طيبة
الحُوَّاء	الحُوَّاء	نبات برّى يضرب لونه إلى الحمرة أو السواد . ويؤكل .
الحوذان	الحوذان	نبات مزهر وتسمى زهرته « النوار » وطعمه حلو لذا تحبه الماشية
الخُبّاز	الخبّار	معروف وكان يؤكل زمن الجوع .
الخِذْراف		
خردل البر		
الخُزَّع		
الخروب الشامى		
الخروع	الخروع	ينبت فى البساتين ويأكله الناس والماشية
الخزامى	الخزامى	نبات مزهر ورائحته طيبة
الخزم		
الخشخاش		
الخطبان		
الخطمْى	الخَطْمِيْ	من نبات البر . يستعمل فى تنظيف الجسم والملابس

الخِلاف		
الخمخَم		
الدآنين		
الدُّعَاع	الدّعَاع	نبات برى له حب يؤكل وقت الجوع
دم الغزال		
الدُّوم		
الذُّعاليق	الذّعاليق	صيغته الجمع للذعلوق وهو نبتة تؤكل كالبسباس والحوًا والحميض ، وال؟بقُيرا .
الذُّفِره		
الذُّنبان	ذنيناب	أو ذنبان ، شجيرة لها سنبلة فى أعلاها .
الرّاء		
الرُّبَل	الرُّبْلَة	نبتة ناعمة تحبها الماشية ، ولها سنبلة فيها حب كحب البرسيم
الرُّبه		
الرتم		
الرُّخامى	الرخام	شجرة صيف تتمدّد أغصانها ، وورقتها تميل إلى البياض
الرُّغل	الرغل	تأكله الماشية وكان الناس فى زمن الجوع يحشُّونه ويغسلونه ثم يأكلونه
الرُّقمه	الرُّقْم	نبتة تتمدد على الأرض تنبت فى الأرض الليّنة
رمان البر		
الرُّمث	الرُّمث	شجر تأكله المواشى حين يخضر ، وتغمض أوراقه على القردان حيث تترعرع داخلها وتنمو .
الرُّمرام	الرمرام	وهو شجر ، ويقال إن الضب إذا لدغ تمرغ على الرمرام فيشفى ويضعونه على مكان « اللدغة »
الرنف		
الرنمه		
الرند		

الريحان		
الزُّبَّاد		لعله « الزبيدى » نوع من الفقع
الزّمه		
الزيتون		
الساسم		
السبستان		
السَّبَط	الصَّبَطْ	نبات برى صيفى . ينفع علفا
السَّخْبَرْ	الصَّخْبَرْ	نبات برى أسفله على هيئة الزرْع وأعواده ملساء شبيهة بالسنابل
السّدْر	السّدْر	معروف
السَّرَّاء		
السَّرْح	السَّرْح	شجر ينفع حطباً
السُّطَّاح		
السَّعْدان	السَّعْدان	نبتة ثمرتها شوكة مستديرة
السُّكْب		
السَّلَع		
السَّلَم	اُلسَّلَم	شجر ينبت فى الشعاب له شوك ويصلح حطبا
السَّمُرُ	السَّمُرُ	من أشجار النفود يؤخذ حطباً
السُّمْسق		
السُّنبل		
السَّيال		
الشُبرق		لعله « العلواق » وهو نبات يتلوى على جذوع الأشجار
الشُّبرِم	الشَّبرِمْ	نبات برى وبلدىِ له شوك
الشُّبَهان		
الشَّث		
الشرْشر	الشرْشر	من نبات البر
الشَّرْي	الشرْى	من شجر الحنظل يتمدد على الأرض له ثمرة بحجم البرتقالة شديدة المرارة

الشّرْيان		
الشّعران		
الشّفَلّحْ	الشّفلّحْ	شجر له شوك . وتمدد أغصانه على الأرض كالرمث له ثمر بحجم الجزر المتوسط يؤكل وهو إذا استوى يتشقق .
شقائق النعمان		ستأتى
الشُّقارى	الشّقّارى	نبتة مستقيمة الأعواد كثيرة الأزهار ذات اللون البنفسجى
الشّكاعى		
الشّوْحط	الشّوحط	شجرة كبيرة تنبت فى الجنوب .
الشُّوع		
الشّيح	الشّيح	شجر له رائحة طيبة . وبعض الناس يتداوى بعرق الشيح
الصّاب		
الصّبْغاء		ويسمى الكحَلْ « صبغاء »
الصّرْاية		
صَعْتر البر		لعله « الزعتر »
القِيْلِيْان		
الصّمعاء	الصّمعاء	نبات له أوراق دقيقة كشعاع السنبلة
الصّبِر		
الصُّوّاف		
الصُّوفان		
الصّوم		
الضّال		
الضّعَةُ	الضّعَةُ	وهى شجيرة برية بحجم اليد . ترعاها الإبل والحمر
الضّغابيس		
الضّمْران	الضّمران	من شجر الحمض وهو اسم لـ « الخريط » من أشجار الحمض
الضّهيأ		

الطبَاق		لعله « الطُبْقان » نبتة قوية تشبه ورقته وثمرته شجر الخباز
الطَحْما		
الطرائيث	الطرائيث	جمع طرثوث وهو معروف
الطُرفا	الطُرفا	شجر يشبه الأثل .
الطَلح	الطَلح	شجر كبير الحجم تضرب أغصانه فيسقط ورقها وتسمى « خبط »
الظَيَّان		
العُبْرِيُّ	العِبْرِىّ	من شجر السدر
العبْقَر		
العبهر		
العَبَوثُران		
		لعله « البعيثران » وهو شجر معروف ينبت فى الشعاب .
العُبثَران		
العتْرة		
العُتْم		
العَجْرم	العَجْرَمْ	من شجر الحمض ويصلح حطباً
العِجْله	العِجْله	نبتة برية تتمدد أعوادها على الأرض تشبه الثُيل
العذار		
العراجِن	العراجِن	الواحد عرجون نباتٌ فطرى شديد البياض
العَراد	العَراد	نبات يستعمل فى النظافة كالاشنان وهو علف
العَرار	العرار	وشجرته تشبه شجرة العرفج
العرب		
العرْعر		
العَرْفج	العَرْفج	شجر برى مزهر تأكله الإبل والحمر .
العساليج		
العُشرَ	العُشر	شجر برى معروف
العِشرِق	العِشرِق	نبات برى يتداوى به
العضاة		

العِضرِسْ	العِضرِسْ	شجر برى خشن ترعاه الماشية عند الضرورة .
العفار		لعله شجر « العوسج »
العِكْرِش	العِكْرِش	شجر برى شبيه بالثيِّل
العِلْجَان		
العَلْقى	العَلْقى	وتسمى « تنش » تشبه الرمرام ولها زهرة بيضاء يخالطها احمرار كزهرة « الرخام » .
العَلَنْدَى	العَلَنْدَى	شجر برى يحتطب عند الحاجة .
عنب الثعلب		
العُنْصُل	العُنْصل	معروف وجذوره تشبه جذور البصل وزهرته زرقاء
العَنْظوان		
العَنْقَزْ		
العَنَمْ		
العِهْنَة		
العَوْسَج	العَوْسَج	شجر برى له شوك . وثمرته حمراء صغيرة .
العَوْف		
العَيْشوم		
الغاف	الغاف	شجر برى ينفع حطباً
الغَرْاء		
الغَرَبْ		
الغَرْف		
الغَرْزُ	الغرز	نبات برى له عروق مجتمعة وفوقها مثل الزرع تعلوه أعواد دقيقة .
الغَرْقَد		
الغِرْيَف		
الغضا	الغضا	شجر ويستعمل حطباً . يشبه الأثل وهو من شجر الحمض
الغَضَرْ		
الغَضَوَّر		
الغَوْلان		

القِصْقِصَة		
فلفل البر	البَرْوَقْ	
القَنَا		
القودَنج		
القان		
القَتَادُ	القتاد	شجر ذو أشواك حادة .
القَتّ	قتُّ الخلا	وتشبه أوراقه أوراق البرسيم وهو « النَّفَل »
القَرَّاصْ	القَرَّاصْ	نبات برى له ثمرة تؤكل وينبت فى سفوح الجبال وفى الشعاب والقيعان ويسميه البعض « قرقاص وقُرَيص »
القرمله		
القرنوة		لعلها « القِرْنا » وهى من نبات الصيف تستخدم فى صباغة الجلود والملابس .
القَسْوَر		
القَصَب		
القَصِيْص		
القَضْب		
القِضة		
القُطْب	القطب	نبات برى وبلدى له شوك كثير . لأنه يتمدد على الأرض
القَفْعاء	القَفْعاء	نبتة برية إذا أكلتها الماشية وهى غضة نضرها
القَلاَم		
القُلْقُلان	القُلَيْقِلان	نبات برى تسمع له خشخشة حين تهب الريح .
القَيْصُوم	القَيصوم	نبات برى ترعاه الماشية عند الضرورة
الكَبَاث		
الكَبَر		
الكَمْأة		
الكحْلا		لعله « الكحل » نبات جذعه أحمر فيه صبغ معروف
الكرَّات	الكرَّات	

الكَرْبَل		
الكَرِش	الكَرْش	من نبات الرياض
الكَرِيص		
كف الكلب		لعله « يد فاطمة » نبات مجتمع بشكل أصابع اليد
الكَفْنه		لعله قصد « الجفنة »
الكلبة		
الكهبل		
لحية التيس		
اللَّصَف	اللَّصَفُ	شجر ينبت فى الجبال له ثمر يؤكل إذا اصفر يشبه الباذنجان الدقيق ، وهو قريب من ثمر الشفلُح .
المخَاطَه		لعلها « البُنْبُرَةْ » شجر قليل له ثمر يؤكل إذا استوى يكون بداخله ما يشبه المخاط يتداوون به لالتحام « المَلْع والمزع » .
المُرارْ		لعله « المرارا » بتخفيف الراء وهى نبتة برية تشبه « الخروع » وهى غير « المُرَيرا » من نبات البساتين
المَرْخُ	المرْخُ	شجر يكثر فى الشعاب ويحتطب .
المرد		
المصاص		
المصُع		لعله « المُصَتَنِع » نبات برى قوى .
المظُ		
المكْر	المكْر	من نبات الصيف . له حب أخضر كحب البرسيم
المكْنان		
الملأح		لعله « المُلَيح » نبات تجم أوراقه بالماء دائما ولا نفع فيه وهو من نبات الربيع .
المَيْس		
النُّجمة		
النُّجيل		
النُّدْغة		

النُّزعة		
النَّشيم		
النَّصِى	النَّصِى	نبات برى يحتشونه وترعاه الماشية .
النُّضار		
النُّعض		
النُّفأ		
النَّفأ		
النَّفزْ		
النُّفَل	النَّفَل	نبات برى مزهر وله رائحة طيبة
النُّقْد	النَّقدْ	شجيرات برية صغيرة زهرتها صفراء كبيرة .
النَّهَق		لعله « اللُّهق » يخدع ناظره عن بعد فإذا جاءه وجده نباتاً ضئيلا . وذلك لتموج زهراته البيضاء الصغيرة الكثيرة .
الهَرِس		
الهراس		لعله « الهريس » شجيرة صغيرة تملأ الأرض بشوكها الحاد المدور وتسمى « ضرس العجوز »
الهَرْدَى		
الهِرْدَى		
الهَرْم	الهَرْم	شجرة تمتلئ بالماء لا نفع فيها مثل « المُلّيح » وإذا كثر فى مكان فإنه يتسبب فى مرض الحمى كما يعتقدون .
الهلْثى		
الهَيشَرّ		
الهيشور		
الوَشِيج		
اليَعْضيد		لعله « العضيد » من نبات الجبال
اليَنَمَه		
ياسمين البر		لعله « الجميم » حيث يحشونه . وهو غصن فيطبخونه ويستعملونه طيباً .
اليَنْبوت	اليَنْبُوت	من نبات الصيف وترعاه الماشية .

٢ ـ ومن النبات المعروف عند أهل نجد والباقية أسماؤه حتى اليوم ولم يذكره الأصمعي ما نجده في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ومنه :

اسم النبتة في كتاب الدنيوري	اسم النبتة عند أهل نجد	بعض خصائصها وأوصافها عندهم
الصفار	الصفُّار	
الصنّار		ولعله « السنُيرًا »
العاقول	العاقول	شجر ورقته صغيرة ترعاه الماشية وفيه شوك وتؤخذ من عروقه مادة الدباغ ، ويوقد بجذوعه فتسمى « قَرِيعْ »
جميمْ	جميم	شجر يشبه « الثمام » له رائحة كرائحة الطيب حين يكسر عوده .
الجنبْه	الجنْبَة	شجيرة تتمدد على الأرض لا ترتفع إلى أعلى
الخَبطْ	الخبطْ	شجر يشبه السدر والطلح تأكله الإبل .
خَربع	خرُبع	يزرع مع القت ، وله ثمرة بحجم البلح ينفلق فيؤخذ منه العصفر ولونه أصفر .
جَفْنَه	جَفْنَه	شجرة بحجم شجرة العضرس .
أذن الحمار	أذن الحمار	شجر ناعم تصغر ورقته كلما ارتفع غصنه .

٣ ـ أسماء بعض النباتات المعروفة عند أهل نجد من خلال بعض الدواوين الجاهلية مرتبة حسب قراءتها :

الديــوان	أسماء النباتات والشجر وصفحاتها
بشر بن أبى خازم	أرطى ، أقحوان ، جعد ، تنوم ، نفل ، حوذان ، طلح ، سدر ، خزامى ، الحلَب ، قرضى . ٥١ ، ٦٣ ، ٥٧ ، ١٥٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢ ، ٨ ، ٨ ، ٢٦ .
الأعشى ميمون ابن قيس	طرفا ، عضيد ، عراره ، عفار ، شوحط ، ثمام ، ثغام . ٢٠ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ١٦٧ ، ١٩٠ ، ١٩٠ .
امرؤ القيس بن حجر الكندى	سمر ، حنظل ، عنصل ، غضى ، بهمى ، حوّ ، غضرس ، رمث ، ينبوت ٩ ، ٩ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢٧٥ .
زهير بن أبى سلمى	قفعاء ، حسك . ٤٩ ، ٤٩ .
أوس بن حجر	شرى ٩٤ .
النابغة الذبيانى	
لبيد بن أبى ربيعة	عشر ، عرمض ، عرعر ، جميم ، أيهقان ، عرفج . ٥٥ ، ١٤٣ ، ٨٤ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧٠ .

	« السفا : شوك البهمى ص ١٦٩ » قلت : والسفا كما نعرف شعاع السنبلة . وهناك نبات نسميه « سفيسفان » ليس شوكا . « اليراعه : القصب ص ١٥٥ » قلت : وهناك نبتة نسميها « ألِراعى » مشتقة من نبتة « الشَقَّارى » إلا أن عيدانها أدق وأكثر استقامة شهباء
عبيد بن الأبرص	الرخامى . السرح . الحمض . ٥٨ . ٤٧ . ١٠٦ .
المثقب العبدى	الشقارى . ٦٥ .
الشماخ بن ضرار	عوسج . مرخ . عكرش . الوديُات « ضعار النخل » . عبرى . بسباس . بردى . ٧٤ . ٨٢ . ١٣١ . ٣٧٢ . ٣٧٣ . ٢٨٠ . ٣٧٢ .
عمرو بن قميئه	الغاف ٤٨
علقمة الفحل	الحظمى ٥٤
حسان بن ثابت	السخبر ٢٦٢
شعراء بنى تميم	الربل . النص « النصى » . ٤٤٦ . ٢٢١ .

وبعد : فهذا عرض مقتضب ودراسة مقارنة موجزة لمسميات بعض الشجر والنبات ليس على سبيل الاستقصاء والشمول . ولا هو عمل موجه لهذا الغرض فقط . فتلك مهمة ينهض بها أصحاب الاختصاص : لكنني ـ مع ذلك ـ وجدت فى هذا التقديم بداية محببة وخطوة طيبة على طريق دراسة الشعر الجاهلى وتحقيقه . ورأيت أن بقاء كثيرٍ من النباتات على مسمياتها القديمة يمكن أن يكون مدخلاً لمعرفة الصورة فى الشعر الجاهلى واستكشاف مكنوناتها وخفاياها وطريقة صياغتها بقدر الإمكان .

إن مجرد بقاء هذه النباتات على مسمياتها القديمة يعد مؤشراً قوياً على استمرارية المعانى والصور التى تتعلق بهذه النباتات . والتى كان يعرض لذكرها الشعراء القدامى . ولن أبحث عن هذه الصور فى ثنايا « الشعر النبطى » كوسيلة لإثبات الشعر القديم . لاسيا وأننا نسعى إلى أن يكون الاتجاه لدراسة التراث اتجاها شموليا على مستوى الوطن العربى كله . وليس إقليميا محليا . وهو ما يؤدى إليه بالضرورة التركيز غير الموجه على التراث الشعبى .

نعم . نحن نقرأ ونسمع مختارات نبطية قديمة رائعة . حقيقة بالعناية والحفظ . وتدوينها عمل رائد وجليل وفيها مجال خصب للدراسات الموضوعية الهادفة ؛ لكننا لن نستطيع ـ ولو حرصنا ـ إقناع الأدباء العرب فى مواطنهم بقبول شعرنا الشعبى وما يذخر به من صور ومعانٍ فطرية أصيلة ـ أقصد الشعر النبطى القديم ـ لذا كان علينا أن نبحث عن بديل علمى ومنطقى لا يعترض أحد منهم على منهجيته . أو الاقتناع به من حيث المبدأ ؛ ولهؤلاء الأدباء والباحثين أن يصلوا تراثهم الشعبى بأى عصر من عصور الأدب العربى . فسوف يجدون متسعاً للبحث ومجالاً رحبا للاكتشاف والإبداع والتأصيل .

فنحن هنا فى نجد ـ مثلا ـ حينا نجد صورة من صور الشعر الجاهلى وهو المقياس الحقيقى للتأصيل تأخذ رسوماتها من أغصان وروائح وأشكال وألوان وخصائص لنباتات معروفة لدينا تحمل المسميات لقديمة نفسها . فإننا نستطيع أن نستأنس بهذه العلاقة . ونستدل بها على عراقة هذه الصورة وأصالة القصيدة . وبالتالى رجحان نسبتها إلى العصر الجاهلى .

وأريد هنا أن استبعد الصور المعروفة : كغصن البان . والنقا . والأراك . وطعم الحنظل . وبياض الأقحوان . وغيرها . تجنباً لاحتمال الوقوع فى الشعر المنحول لشهرة النباتات المذكورة .

وكثيراً ما كان أهل نجد يشبهون قوام المرأة بغصن « ألِراعى » فى دقته واستقامته ولدانته . ولابد أن هناك تشبيهات أخرى فى النبات قديمة وحديثة يعرفها أهل الاطلاع والخبرة .

ولا يضيرنا أن تكون هذه النباتات « النجدية » أو بعضها معروفة اليوم بأسمائها المذكورة فى اليمن والحجاز وشرقى الجزيرة العربية والعراق والشام ـ كمواطن عربية قديمة ـ فإن الاشتراك فى

التسمية قد يعيننا على استقراء الشعر الجاهلى نفسه وتحديد مواطن الشعراء ، وأماكن نظمهم للقصائد وتوثيقها .

ومثل النبات فى الاسترشاد على معرفة الصورة وتحقيق وتوثيق الشعر الجاهلى : الطبيعة بمظاهرها المختلفة من جبال ، ورمال ، وأودية ، وشعاب ، ورياض ، وأماكن مختلفة أخرى وسائر الطيور ، والحيوان : من إبل وخيل وصيد ، وكذلك حياة الناس وطبائعهم ، ولاتزال فى الرجل والمرأة سمات وأخلاق حسنة باقية حتى اليوم ، كان يذكرها الجاهليون فى شعرهم كثيراً .

ومن وجهة نظر تاريخية واجتماعية ، فإن قراءة فاحصة فى ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى الغطفانى تعطينا تصوراً تاريخياً طيباً عن قبائل « بنى رشيد » ، وهذا مثال .

لكن كيف يمكننا تمييز الصورة من خلال الطبيعة على ضوء ما أشرت إليه ؟ وما العوامل المساعدة على فهم هذه الصورة إلى جانب إمكان معرفة المعالم الجغرافية والإلمام بها ؟ فهل نجعل لشعراء اليمامة ومكة واليمن صورة لأن الأعشى كان يتردد على مكة ونجران ؟ ونجعل لأهل المدينة والشام صورة لأن النابغة الذبيانى كان يتردد على المدينة وحسان بن ثابت كان يتردد على الغساسنة فى الشام ؟ ونجعل لأهل نجد والعراق وشرقى الجزيرة. العربية صورة : لأن طرفة والمتلمس والمثقب العبدى وغيرهم وأكثر شعراء تميم وطيئ وبكر وتغلب كانوا يترددون على الحيرة فى العراق ؟

ولما كان الشعر الجاهلى مزدهراً فى نجد والعراق وشرقى الجزيرة العربية ، فإن الذى أرجحه وأميل إليه أنه كان لشعراء شمالى نجد والعراق وشرقى الجزيرة العربية صورة مغايرة لصور الشعراء فى اليمامة وجنوبى نجد بوجه عام ولو فى بعض الجوانب .

وإذاً فالتراث ـ الشعر الجاهلى ـ تراث ضخم وقد يكون حقيقياً فى أكثره ينبغى علينا مراجعته مراجعة جادة ومدروسة فلا نجزم حياله بموقف معينّ ـ سواء بالشك أو اليقين ـ وبمقدورنا الاستعانة على معرفته بجزئيات البيئة والواقع أو ـ على الأقل ـ تجريب الاستعانة بهذه الجزئيات ، وهو أدب رفيع ، يمكننا أن نرقى به إلى مصاف الآداب الإنسانية الأخرى ، فلا يكفى أن ننعته بأنه أدب أو شعر غنائى ذاتى ، ونتوقف عند هذا الوصف لا نتعداه ؛ فقد تحدث الشعراء الجاهليون عن الوفاء ، والأمانة ، والصدق ، والصداقة ، والبؤس ، والشقاء ، والبخل والسخاء ، والصبر والفقر ، وتحدثوا عن الجمال فى الإنسان ، والحيوان ، والطبيعة ، ولهم سبق قديم فى مجال الرفق بالحيوان وكذا الحديث عن الجياع والمساكين ، والبائسين ، وتصوير أحيائهم وأحوالهم ، ومعاناتهم .

كل هذا وذاك ، مما قد يعده القارئ تضاؤلاً مبالغاً فيه ؛ إلا أنه يجعلنا أمام تراث ضخم ، أدب جم فيه متسع للدراسة وللعطاء بروح العصر ، وهو يحتاج من الباحث إلى صبر وأناة ، إنعام نظر ، وتقبل للعقبات والأخطاء .

وأرى أن الاستعانة على هذه الدراسة بالواقع الجغرافى ، والاجتماعى ، والتاريخى ، ضرورة علمية وموضوعية تقتضيها أصول الدراسات الأدبية الحديثة ، وذلك للوصول إلى أفضل النتائج المرجوة على طريق تأصيل التراث وتوثيقه .

وبالله التوفيق .

* * *

المصادر مرتبة حسب ورودها فى البحث :

ـ كتاب « النبات » لأبى سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعى تحقيق ـ عبدالله يوسف الغنيم طبع لندن ١٩٥٣ .
ـ كتاب « النبات » تأليف أبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى طبع ليدن ١٩٥٢ .
ـ ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى تحقيق الدكتور عزت حسن نشر وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢ .
ـ ديوان الأعشى ميمون بن قيس . دار صادر (بدون تاريخ) .
ـ ديوان امرؤ القيس بن حجر الكندى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر ط ٣ ـ ١٩٦٩ .
ـ ديوان زهير بن أبى سلمى دار صادر (بدون تاريخ) .
ـ ديوان أوس بن حجر تحقيق د . محمد يوسف نجم دار صادر ١٩٦٧ .
ـ ديوان لبيد بن أبى ربيعة العامرى . دار صادر ١٩٦٦ .
ـ ديوان عبيد بن الأبرص . دار صادر ١٩٦٤ .
ـ ديوان المثقب العبدى . تحقيق حسن كامل الصيرفى نشر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٧١ .
ـ ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى تحقيق صلاح الدين الهادى دار المعارف بمصر .
ـ ديوان عمرو بن قميئة . تحقيق على ابراهيم العطية ، دار الحرية . بغداد ١٩٧٢ .
ـ ديوان علقمة الفحل . تحقيق : لطفى الصقال ودرية الخطيب . ، دار الكتاب ، حلب ١٩٦٩ .
ـ ديوان حسان بن ثابت . تحقيق د . سيد حنفى حسنين الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤ .
ـ شعراء بنى تميم فى العصر الجاهلى . د . عبدالحميد المعينى نشر النادى الأدبى ببريدة ١٩٨٢ .
ـ شعراء النابغة الذبيانى تحقيق الطاهر بن عاشور ، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ، الجزائر ١٩٧٩ .

* * *